ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

التحليل الحجاجي لرثائية ابن شهيد الاندلسي لابن ذكوان

الاستاذة: ناصف خضرة
جامعة المسيلة

ملخص :

يتلخص مضمون البحث , في كيفية عمل الحجاج في النص الشعري القديم , من خلال قصيدة رثائية لابن شهيد الأندلسي كأنموذج للدراسة .

و قد تناولنا في هذا المقال مقدمة للموضوع , تطرقنا فيها للمقاربة الحجاجية وأصولها التداولية , في جانبها النظري , و ما تعلق بصورة مباشرة بالبحث , كإطار عام للدراسة , ثم طرحنا الإشكالات التي تناولها البحث بالدراسة , و لعل أهمها :

- هل الحجاج في قصيدة ابن شهيد الرثائية للقاضي ابن ذكوان حجاج ظاهر أم هو حجاج مستتر لا يدرك من خلال الجانب السطحي للنص ؟
- ما هي تقنيات الحجاج المستعملة في نص القصيدة ؟
- ما مدى فعالية تلك التقنيات في تحقيق مقاصد الشاعر من نصه الرثائي ؟

و قد كانت الإجابة عن هذه الإشكالات من خلال مجموعة من العناصر , التي تناولها البحث بالدراسة , و هي :

الحجاج بالصورة , و الحجاج بالأنموذج , ثم تقنيات النمذجة في قصيدة ابن شهيد الرثائية للقاضي ابن ذكوان , التي تعرضنا من خلالها إلى تقنيتين فنيتين حجاجيتين , استعملهما ابن شهيد لصناعة أنموذجه , و هما : تقنية المبالغة في الوصف والتصوير , و تقنية حشد الأوصاف و الأحوال .

و قد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها :

- أن النص العربي القديم بما فيه النص الرثائي , نص حجاجي له مقاصد وأهداف , يسعى الشاعر لإثباتها و ترسيخها محاولا إقناع المتلقي بما يطرحه , و هو ما تؤكده النظرية التداولية الحديثة , التي تثبت أن أي نص لابد و أن يكون منطو على حجاج.
- كما أن الحجاج في النص الشعري القديم , قد لا يكون ظاهرا جليا مثلما هو الحال في النص الشعري الحديث و المعاصر , فالحجاج يستتر و يختفي بين طيات النص

ومع تتبع الخيط الذي يربط أجزاء القصيدة ندرك بعض مقاصد الشاعر , و أهدافه التي يحاجج في سبيل الإقناع بها.

- و قد بدا لنا أن الحجاج في هذا النص الشعري القديم يفند ما يذهب إليه البعض من النقاد من أن النص الشعري القديم نص متفكك , لتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة , و انعدام رابط بين أجزائها , و ذلك لأن من سمات الحجاج في أي نص الانسجام و عدم التناقض .

- كما تبين لنا أن الحجاج في النص الشعري متنوع و خاضع لخصوصية النص الشعري , و لغته الشعرية , فهناك حجاج بالصورة , و حجاج بالأنموذج , و هو ما أثبتته هذه الدراسة .

- كما أن صناعة الأنموذج "موضوع القصيدة " يتطلب تقنيات فنية تخدم هذا النوع من الحجاج , كتقنية المبالغة في الوصف و التصوير , و تقنية حشد الأوصاف و الأحوال , اللتين استخدمهما ابن شهيد في صناعة أنموذجه " القاضي ابن ذكوان".

ملخص باللغة الانجليزية:

The content of the research focuses on how argumentation works in the ancient poetic text through a poem of "the Andalusian Ibn Shouhid " as a model of study.

In this paper we discussed the subject of the approach of argumentation and its deliberative origins in its theoretical aspects and directly related to research as a general from work of the study.

Then we raised the issues discussed in the research study and the most important is:

- The argumentation in Ibn Shahid Rhetoric of judge Ibn daqwan is it argumentation apparent or is a hidden argumentation that does not Know the superficial aspect of the text.
- What techniques are used in the text of the poem?
- How effective are these technique in achieving the poet's goals of rhyming text?

The answer to these problems was through a set of elements dealt with a research study and it is:

The argumentation in the model image and the modeling techniques in Ibn Shouhid 'rhetorical poem to "Judge Ibn Dakwan "through wich introduced two artistic techniques used by "Ibn Shouhid "for

soundmaking model, technique of exaggeration in description and photography and technique of descriptions and conditions.

We obtained a number of result from this study, and especially:

- The ancient Arabic text, including the rhetorical text, that the poet seeks to prove and suppress attempts to convince the recipient of what is being lifted, as confirmed by modern deliberative theory, which proves that all the text must be a metaphor.
- The argumentation in the ancient poetic text may not be as clear as in the modern poetic text it hides and disappears between the folds of the text and with a follow-up of the thread that connects certain parts of the poem goals and objectives of the poet, who are based on a convincing conviction.
- It seems to us that argumentation in this ancient poetic text refute what some critics of the ancient poetic text to the text of the disintegration of the multiplicity of the subjects of the poem and the lack of link between the parties and that because the characteristics of the plate-form and argumentation with the model that this study has proved.
- And also that the model industry "the subject of the short poem requires technique to serve this type of argumentation as a method of exaggeration in description and description and the technique of filling descriptions and conditions used by Ibn Shouhid in the manufacture of modeling "judge Ibn Zakwan."

مقدمة:

ظل الشعر العربي القديم محافظا على ألقه وسحره، باسطا سلطته على النفوس والعقول منذ عصوره الأولى إلى يومنا هذا، ونظرا لثرائه الفني والمضموني تعددت قراءاته باختلاف متلقييه، واختلاف توجهاتهم الفكرية، ومرجعياتهم الثقافية، وتنوعت محاولات شرحه وتأويله, بل لأنه "تجاوز -أحيانا كثيرة – ذاتا مبدعة، ليحلق في فضاء إنساني رحب، وجد فيه المتلقي الحديث ما يستجيب لأفق انتظاره، وما يحرك فيه مشاعره وأفكاره، بل يغريه بالتدبر والتأمل أو التساؤل الطامح إلى بلوغ اليقين".[1]

فأضحى هذا النص مخلوقا متجددا، يجدد أثوابه من حين إلى آخر بتجدد قرائه.

و سنحاول في هذا البحث المتواضع أن نجلي جانبا مهما من جوانب أحد النصوص الشعرية القديمة ,الخاصة بالعصر الأندلسي، وهي قصيدة رثائية لابن شهيد

الأندلسي(*)، يرثي فيها أحد قضاة الأندلس المشهورين بقرطبة، وهو القاضي ابن ذكوان(**).

وفي هذا السياق تأتي قراءتنا لهذا النص الشعري القديم، من زاوية تعنى بالحجاج وأساليبه، فالحجاج باعتباره " فن الإقناع وطرائق الاستدلال حاضر في كل خطاب كما تؤكده النظرية الحديثة"(2).

وقبل الانتقال إلى ذلك كان من الضروري وقوفنا وقفة نظرية موجزة عند المنهج التداولي ونظرية الحجاج.

فللمقاربة الحجاجية وجهة نظر مخصوصة في تحليل ضروب الخطاب، بوصف الخطاب ينشأ لمقاصد إقناعية تواصلية، والخطاب الحجاجي " ثمرة لقدرة الإنسان التواصلية بوصفه ممارسة ناتجة عن تفعيل الكفاءة الحجاجية ذاتها"(3).ولفهم هذه المقاربة يجب أن نضعها أولا في إطارها العام , الذي تنتمي إليه , وهو المنهج التداولي أو التداولية .

تعرف التداولية بعدة تعريفات حسب مدارسها المختلفة , و مشاربها المتنوعة , لكن الأساس الذي قامت عليه هذه الأخيرة هو مقاربة اللغة من ناحية استعمالها , فقضيتها هي " إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي , و التعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"(4)

كما تعرف التداولية أيضا بأنها " الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة , وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية و المقامية و الحدثية والبشرية " (5) , أو هي" دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية و تواصلية واجتماعية معا " (6)

و بناء على هذه التعريفات، نستخلص أن التداولية تبحث في دلالة المعاني كما يوصلها المتكلم، ويفسرها السامع، ولذلك فهي تهتم بما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر مما تهتم بما يمكن أن تعنيه الكلمات منفصلة عن السياق , لذلك فإنه من الضروري تفسير ما يقصده الناس في سياق معين، وكيفية تأثير السياق فيما يقال.

و تدرس أيضا، الكيفية التي يصوغ من خلالها المستمعون استدلالات حول ما يقال، للوصول إلى تفسير المعنى المقصود من المتكلم، ويبحث هذا الدرس أيضا في كيفية إدراك قدر كبير مما لم يتم قوله، على أنه جزء مما لم يتم إيصاله"(7). ويمكننا القول أن التداولية هي المنهج الذي يدرس اللغة لا في ذاتها، بل في استعمالها وتحركها وهي تؤدي وظائفها.

و هذا الإطار هو الذي تندرج فيه نظرية الحجاج ، التي تنوعت مدارسها، واستفادت من التداولية ومقارباتها المختلفة، فقد درس الحجاج البلاغي عند "بيرلمان"، والحجاج الفلسفي، والحجاج الجدلي. ..

و ليس من المناسب في هذا البحث القصير الإلمام بكل الجانب النظري حول نظرية الحجاج، ، بل تكفي الإشارة فقط إلى ما يرتبط به البحث بصفة مباشرة، فالمقام لا يسمح بذلك التوسع والإلمام.

إن الأدب - بما فيه الشعر – باعتباره ضربا من ضروب الخطاب، لا يخلو من الحجاج، ولعل المقاربة التي تعنى بالحجاج وأفانينه , قد تقودنا إلى مراجعة جملة من الأفكار الرائجة الشائعة، أو رفض بعضها ودحضه.

و دراسة الحجاج في النص يتطلب الوقوف عند أساليبه وطرقه، التي يلجأ إليها المبدع من أجل الإقناع، وجعل المتلقي متأثرا بما يطرحه في نصه من رؤى وأفكار، فيقبل عليها مصدقا مذعنا، سواء بعقله أو بعاطفته، إذ " أن الحجاج يغدو إستراتيجية تواصلية تسعى إلى التأثير في الآخرين"[8].

و لأجل التأثير المطلوب، والإقناع بأطروحته، يستعمل المتكلم " المخاطب " مجموعة من التقنيات أو الطرق، والمقصود بها " مجموع ما يطوعه المتكلم بغية خدمة وجهة نظره عن طريق حمل المتلقي على التسليم بصحة موقفه أولا، والإذعان لمراده، والتبني لما يطرحه من وجهات نظر ثانيا"[9].

ونحن ندرس الحجاج في النص الشعري يجب أن " نأخذ بعين الاعتبار خصوصية هذا الخطاب باعتباره يقوم على التلميح بدل التصريح، وعلى الاختزال بدل الإسهاب، وعلى التصوير، وأفانين الإثارة والتأثير فهو خطاب بلاغي بالأساس، يخاطب العاطفة قبل أن يخاطب العقل، يعمل على الإطراب والحمل على الإذعان، فقد لا ينشد إقناع المتلقي إقناعا حقيقيا في كثير من الأحيان، بقدر ما ينشد حمله على الإذعان لما جاء به دون اقتناع حقيقي, فيعمد عندها إلى المغالطة والتمويه والإيهام. .." [10].

فالإقناع المطلوب حصوله في النص الشعري، يختلف عن الإقناع في أي خطاب آخر، فقد يكون في الشعر إذعانا عاطفيا من المتلقي، عن طريق جذبه واستمالته لكلام المخاطب بواسطة لغة الشعر وأساليبه، فيكون المتلقي أقرب إلى الاقتناع والإذعان الحقيقي.

و القصيدة الرثائية في الشعر العربي القديم , لها خصوصياتها البنائية و المضمونية , فهي تنطوي على تقليد درج عليه القدماء في رثاء الميت من استهلال المرثية بأبيات في التفجع , بها تصوّر لوعة الحزن , وهول المصاب , و قد يستهلها بأبيات في الحكمة عن حتمية الموت , و عجز الإنسان المطلق عن مواجهته , ثم ذكر خصال الميت , و أثر افتقاده في النفوس , و ذكر زوال الأمم والشخصيات العظيمة في التاريخ , وذلك للاتعاظ والاعتبار, " "فمن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة(11)

هذه التقاليد التي سار عليها الشعراء في القديم في بناء القصيدة الرثائية، نجد ابن شهيد كغيره من الشعراء القدماء يسير عليها، فيبكي من خلالها مرثيه، ويتفجع على موته، معددا خصاله، مشيدا بمكانته في مجتمعه، وأثر وفاته على النفوس.

وفي سبيل إثبات مكانة القاضي ابن ذكوان، التي كان يتمتع بها في عصره، من عظمة في شخصه، وندرة أمثاله من العظماء، أخد ابن شهيد على عاتقه في هذه المرثية مهمة الحجاج على هذه المكانة، فالأمة افتقدت علما من أعلامها، وحزنت عليه حزنا كبيرا، كما حزنت الطبيعة و الكون لهذا المصاب الجلل, و هو ما صوره ابن شهيد في نصه.

و الأسئلة التي يمكن طرحها هنا هي:

- كيف استعمل ابن شهيد الحجاج على إثبات أحقية ابن ذكوان بالرثاء و الحزن عليه؟
- هل حجاج ابن شهيد يتجلى بصورة واضحة أم هو مستتر بين طيات القصيدة ؟
- و ما هي التقنيات الحجاجية المستعملة في النص ؟ وما مدى فعاليتها في نص رثائي كهذا النص ؟

أولا: الحجاج بالصورة:

كثيرا ما عرف الشعر العربي القديم بالغموض، ولعل ذلك مرتبط كثيرا بالتخييل, أي الايهام وقلب السمع بصرا، فالشاعر وهو يعدل بخطابه عن الكلام العادي، ويبنيه على التمثيل والتصوير، أي تمثيل الفكرة وتصويرها للحس، إنما يقلب السمع بصرا كما يقول ابن رشيق[12] أو " يفتح إلى مكان العقول بابا "[13]، كما يعبر عن ذلك عبد القاهر الجرجاني، لأن الشاعر وإن تجاوز بخطابه الواقع عن طريق المجاز، فإنه يظل مشدودا إليه بقرائن دالة تبعده عن كل لغو.

وعليه كان الحجاج بالتمثيل أقرب أنواع الاستدلال إلى الشعر، وألصقها به، لأنه مبني على التشابه بين حالتين، حالة واقعية وحالة من صنع خيال الشاعر، فيكون بذلك

مجال التمثيل هو التشبيه والاستعارة، اللذان عدهما الفلاسفة وبعض البلاغيين قياسا شعريا، إذ يقول عبد القاهر الجرجاني " والتشبيه قياس، والقياس فيما تعيه القلوب , وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان"[14].

فالقياس الشعري بهذا المعنى يجمع بين الإقناع والجمال الفني، فهو يقنع بالفكرة أو الرأي من جهة أنه قياس إلى أمر آخر مشابه، وهو من جهة أخرى صورة تزين القول وتحسنه.

يفتتح ابن شهيد قصيدته في رثاء ابن ذكوان ببيت في التفجع والأسى على افتقاد صاحبه، وقاضي الجماعة بمدينة قرطبة، سائرا على طريقة أمثاله من القدماء في استهلال المرثيات بأبيات التفجع، وذكر شدة اللوعة، ومقدار الحزن قائلا :

إذا لم تجد إلا الأسى لك صاحبا فلا تمنعن الدمع ينهل ساكبا [15]

فهو يصور لنا حزنه ولوعته لفقدان هذا الرجل العلم، الذي افتقد معه الصاحب، فأضحى الحزن له صاحبا، فشخّص الأسى وجعل منه إنسانا (صاحبا), وهو تعبير مجازي، يعبر عن مدى تأثر ابن شهيد بموت صاحبه ابن ذكوان القاضي، فالأسى ليس إنسانا حتى يكون صاحبا، وإنما هي مصاحبة معنوية على وجه المشابهة بين الحالين، تعبر عن حال التفجع في افتقاد ابن شهيد لهذا الصاحب، فلم يجد بعده إلا الحزن صاحبا.

و في البيت الثاني يصور موت الرجل، وأثره في الغرب العربي قائلا:

هوت بأبي العباس شمس من التقى وأمسى شهاب الحق في الغرب غاربا[16]

فشبه الموت الذي أصاب أبا العباس بن ذكوان بسقوط شمس، لكن هذه الشمس هي شمس التقى هوت، وشهاب الحق غرب وذهب، وفي هذا التصوير الكثير من المبالغة ، فابن ذكوان هنا يمثل التقى والحق المطلقين، الأمر الذي جعل الشاعر لا يصدق نبأ وفاته، فاعتقد المنادي بوفاته كاذبا لعظم المصيبة التي حلت، ولهول الخطب الذي حدث قائلا:

ظننا الذي نادى محقا بموته لعظم الذي أنجى من الرزء كاذبا[17].

كما صور الشاعر الصباح الذي فقدوا فيه هذا العلم ليلا، لأن حالة التفجع والحزن الت عاشوها تشبه الليل المظلم، بالرغم من أنهم في عز الصباح ، وفي هذا يقول:

و خلنا الصباح الطلق ليلا و إنما هبطنا خداريا* من الحزن كاربا[18]

فيستخدم ابن شهيد التشبيه لتقريب الصورة، وإقناع المتلقي بعظم المصيبة، قائلا:

ثكلنا الدجى لما استقل و إننا فقدناك يا خير البرية، ناعبا[19]

فشبه الدجى (الظلام) بالإنسان الذي يثكل على سبيل الاستعارة المكنية، وقرب من خلالها حالة الحزن التي يعيشونها. ويستمر ابن شهيد في المبالغة، فيخيل لنا وكأن الإسلام ذهب بذهاب هذا الرجل, قاضي الجماعة بقرطبة نظرا لمكانته الدينية بينهم:

وما ذهبت إذ حل في القبر نفسه ولكنما الإسلام أدبر ذاهبا[20]

فذهاب هذا الرجل هو بمثابة ذهاب الإسلام عن بلاد الأندلس، واللجوء إلى مثل هذه المبالغة يضفي مزيدا من التعظيم لهذا الرجل، ومحاولة إقناع المتلقي بالمكانة الدينية العظيمة، التي يتمتع بها بين أهل الأندلس، لذلك استحق الرثاء والبكاء عليه.

ويصور ابن شهيد توديعهم لهذا العلم العظيم قائلا :

و لما أبى إلا التحمّل رائحا منحناه أعناق الكرام ركائبا
يسير به النعش الأغر وحوله أباعد راحوا للمصاب أقاربا
عليه حفيف للملائك أقبلت تصافح شيخا ذاكر الله تائبا
تخال لفيف الناس حول ضريحه خليط قطا وافى الشريعة هاربا [21]

فيصف لنا حملهم لنعش هذا الرجل العظيم على أعناق كرام المجتمع , وحوله أناس أباعد , في أصل القرابة , ولكن لعظم المصاب أضحوا و كأنهم أقارب , محاولا بهذا التصوير إقناع المتلقي بمكانة هذا الرجل على مستوى القريب و البعيد. كما صور لنا نوره و تقواه , و استدل على ذلك بأن صور من خياله جمعا من الملائكة يحف قبره مصافحا ومرحبا, و هي مبالغة غايتها التعظيم , لإقناع المتلقي أن هذا الفقيد أهل لأن يرثى , وجدير بأن يتفجع عليه ,لمكانته الدينية الكبيرة في الأندلس . أما جموع الناس حول قبره و تزاحمهم عليه , فهي تشبه خليطا من القطا فارا هاربا أفواجا .

و ينتقل ابن شهيد بعد ذلك إلى تصوير دموع الناس، وهي تذرف حزنا على افتقاد هذا العلم:

إذا ما امتروا سحب الدموع تفرعت فروع البكى عن بارق الحزن لاهيا[22]

فهؤلاء الناس إذا ما بكوه، كانت دموعهم أمطارا, وكانت أعينهم سحبا مدرة لهذه الدموع، وكان الحزن هو البرق المهيج لها.

ثم يصور الشاعر افتقادهم للقول الفصل لهذا الرجل, أمام الألد المعاند من الناس في الأمور والقضايا الدينية، إشارة إلى دوره المهم في الدفاع عن الدين والذود عنه أمام المعاندين، محاولا الإقناع مرة أخرى بمكانة هذا الرجل الدينية، فيقول:

فمن ذا لفصل القول يسطع نوره إذا نحن ناوينا الألدّ المناوبا

ومن ذا ربيع المسلمين يقوتهم إذا الناس شاموها بروقا كواذبا[23]

فهذا القاضي شمس يسطع نورها بالقول الفصل، أمام الألد المكذب من الناس, وهو ربيع المسلمين، فهو رمز للحق وللعدل ، وكل هذا التصوير المبالغ فيه أحيانا، دليل على حجاج ابن شهيد، وعلى محاولته إقناع المتلقي بمكانة ابن ذكوان في الأندلس، وأنه يستحق هذه المكانة التي قلده إياها، فهو شمس الحق التي تنير على الناس بالعدل, والحكم بالقول الفصل في المسائل، التي يقف أمامها بعض المعاندين المكذبين.

ويعود الشاعر مرة أخرى إلى التحسر والتلهف على فقد هذا الرجل قائلا:

فيا لهف قلبي آه ذابت حشاشتي مضى شيخنا الدفاع عنّا النوائب

ومات الذي غاب السرور لموته فليس وإن طال السرى منه آيبا[24]

فمن المبالغة أن يجعل ابن شهيد غياب السرور بموت ابن ذكوان غيابا تاما, فهو كثير السرور، معروف بالبشاشة، فهذه المبالغة من حيث الحجاج هي قياس شعري يتكون من مقدمتين واستنتاج:

جملة ثانوية: ابن ذكوان كثير السرور

جملة أساسية: غاب السرور بموت ابن ذكوان

استنتاج: ابن ذكوان هو السرور ذاته

وكان عظيما يطرق الجمع عنده ويعنو له رب الكتيبة هائبا[25]

جملة ثانوية: ابن ذكوان يتواضع له رئيس الكتيبة ويهابه

جملة أساسية: ابن ذكوان يتواضع له الجميع ويهابونه

استنتاج: ابن ذكوان يمثل الاحترام والوقار

ويواصل ابن شهيد ذكر مكارم هذا الرجل ، مستدلا على مكانته في المجتمع:

وذا مقول عضب الغرارين صارم يروح به عن حومة الدين ضاربا[26]

فهذا القاضي أقواله قاطعة كالسيف الحاد ، مدافعا بها عن الدين , ذائدا بها عن العقيدة .

جملة ثانوية: القاضي ابن ذكوان قاطع الأقوال .

جملة أساسية: ابن ذكوان قاض يدافع بأقواله عن الدين.

استنتاج: ابن ذكوان قاض عادل، حام للدين.

ويختم ابن شهيد قصيدته بأبيات في تعزية أخ لابن ذكوان , وهو أبو حاتم[***]ليواسيه في هذا المصاب الجلل، وهي في معانيها الخفية لا تخرج عن الحجاج عن مكانة ابن ذكوان وعن رثاء الخصال العظيمة , التي ذهبت بذهابه، إذ يقول ابن شهيد:

أبا حاتم صبرالأديب فإنني رأيت جميل الصبرأحلى عو اقبا

وما زلت فينا ترهب الدهرسطوة وصعبا به نعي الخطوب المصاعب

سأستعتب الأيام فيك لعلها لصحة ذاك الجسم تطلب طالبا [27]

فهذه الأبيات الثلاثة دليل وحجة أخرى تضاف، لتدعم قيمة المرثي، وذلك بتصبير الأهل فيه، والتأمل فيهم ما كان من هذا الميت , من خصال ومكارم ، والبيت الأخير يؤكد فيه ابن شهيد هذا الأمر قائلا:

لئن أفلت شمس المكارم عنكم لقد أسأرت بدرا لها وكواكب[28]

فيؤكد ابن شهيد بحجاجه قيمة هذا العلم, فهو شمس المكارم التي أفلت وغربت، إلا أنها أبقت لها بدرا وكواكب، وقد جاءت هذه الصورة في شكل تشبيه بليغ، إذ شبه ابن ذكوان بشمس المكارم ذاتها, والتي غربت وزالت, لكنها تركت بدرا وكواكب، تمثلت في أخيه وذريته من بعده, وهو تأكيد آخر على عظمة هذا الميت , والإشادة بخصال أهله .

وهذا التشبيه البليغ، هو صورة جمالية زادت الكلام زينة ورونقا، وهو في الوقت ذاته قياس شعري، يتكون من مقدمتين واستنتاج:

جملة ثانوية: ابن ذكوان شمس المكارم الآفلة

جملة أساسية: ابن ذكوان شمس المكارم الآفلة لكنها تركت خلفها

استنتاج: ابن ذكوان لن يزول ذكره، لأنه ترك خلفا صالحا

نخلص في نهاية هذا العنصر إلى إن ابن شهيد عمد إلى الصورة في حجاجه عن قيمة مرثيه، محاولا إقناع متلقيه ، فكانت الصورة وسيلة حجاجية، إضافة إلى جمالها الفني.

ثانيا- الحجاج بالأنموذج:

إن الدارس للشعر العربي القديم في شتى أغراضه، وفي مختلف مناسبات كتابته، يدرك دون شك أن له سمات معينة، يشترك فيها الشعراء جميعا، على اختلاف مراتبهم، وطبقاتهم، ومن أهم تلك السمات جنوح هؤلاء الشعراء إلى ضرب من المبالغة في القول والغلو في الوصف والتصوير.

فالشاعر منهم إذا مدح سما بممدوحه إلى أعلى المراتب، وبوأه مكانة لا تليق بغيره، وأسبغ عليه الصفات والنعوت والأحوال، بما يتجاوز –أحيانا- العنصر البشري إلى مكانة

خارقة، ليست من البشر في شيء، وإذا هجا سلب مهجوه كل الفضائل، وألصق به كل رذيلة ونقيصة، حتى يغدو ذلك المهجو صورة مفارقة لما هو معروف بين البشر.

كما أنه إذا افتخر بالذات ألهها وقدسها، وإذا شبب بالمرأة جعلها ملاكا مقدسا، وإذا رثى شخصا، رثى القيم والفضائل ذاتها، لأنها ذهبت بذهابه، وافتقدت بافتقاده .

والمبالغة نفسها، والغلو ذاته نجدهما في بقية الأغراض الأخرى، كالخمريات، والزهد والتصوف. ..

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا: ما الفائدة من هذا الميل إلى المبالغة والغلو الشعر العربي القديم ؟ وما الذي يريد الشاعر بلوغه بهذه المبالغة في القول والوصف والتصوير ؟

لاشك في أن الغاية الأولى من كل ذلك هي غاية فنية جمالية، فبالمبالغة يقوى المعنى وينمق القول بالتشبيهات والصور عموما. .. فيكون بذلك التأثير في المتلقي والإطراب، فقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم[29]

قول لا يخلو من مبالغة حد التهويل، فالمفتخر أديب وشاعر، جعل بقوة شعره الأعمى بصيرا , ليرى هذا الشعر، وجعل الأصم يسمعه ، وهذا تأليه للذات المفتخرة، وسمو بها إلى مراتب أعلى لا تختص بها في العادة، وهو من جهة أخرى، "يؤكد أن الشعر كلام يخالف المألوف، من جهة أنه لا يخبر باللغة، بل يبني عوالم جيدة لا حدود لها"[30].

و المبالغة التي نتحدث عنها هنا، لا نريد من خلالها إثارة قضية الجانب الفني والجمالي، الذي هو – كما عرفنا – أحد غايات الشعراء ، لكننا أردنا إثارة جانب خفي لا يبديه الشاعر، وهو يبالغ ويغلو في شعره، وإنما تكشفه أساليب خاصة في شعره، وهو السمو بموضوع أبياته إلى مرتبة" الأنموذج"، أنموذج الفضائل والقيم، إذا كان الأمر مدحا أو فخرا, وأنموذج للرذائل إذا كان الغرض هجاء , أو أنموذج للجمال والحب ، إذا كان الموضوع غزلا، وأنموذج مفقود , يظل منشودا ذكره إذا كان الغرض رثاء. ..

لكن السؤال المطروح هو: هل تكفي المبالغة وحدها لصناعة الأنموذج ؟ أم هي واحدة من تقنيات عديدة يعمد إليها الشاعر في بنائه لأنموذجه ؟

و الواقع أن المبالغة هي الظاهرة الأكثر بروزا في نصوص الشعر العربي القديم، لكنها الظاهرة التي تهدي إلى مسألة النمذجة، وتعني نمذجة موضوع الشعر في القصيدة ، إذ عن طريق المبالغة والغلو يستطيع الشاعر صنع نموذجه المثالي في قصيدته ، سواء كان

إنسانا , أو شيئا، وليس من السهل نمذجة الأشخاص أو الأشياء ، فالشاعر يستخدم كل الوسائل الفنية والأسلوبية لصنع نموذجه ومثاله، إضافة إلى ما يتمتع به من موهبة وثقافة.

وابن شهيد من الشعراء المقتدرين، فاطلاعنا على ديوانه أوضح لنا مقدرة الرجل الشعرية، واجتهاده في كل الأغراض، ومنها غرض الرثاء, واخترنا هذه القصيدة في رثاء ابن ذكوان, لأنها مثال واضح عن حجاج يسعى من خلاله الشاعر إلى جعل المرثي نموذجا فريدا في عصره، فرثاه مخلدا اسمه، صانعا من شخصه نموذجا، فقدت الأندلس بافتقاده كل فضيلة، بل صوره الشاعر هو والإسلام سيان، وهي مبالغة ترمي إلى حجاج مقصود, أراد من خلاله ابن شهيد نمذجة هذا الرجل, وتخليده بخصاله و مكانته .

و الحجاج بالأنموذج نوع من الحجاج القوي، إذ " يعد الحجاج بالأنموذج ضربا من الحجج المؤسسة لبنية الواقع"[31].

فمثل تلك الحجج تؤسس هذا الواقع، وتبين العلاقات بين عناصره ومكوناته. والاستدلال بالأنموذج , يدخل في نطاق تقنية خاصة من تقنيات بناء الواقع ، وهي تأسيسه بواسطة الحالات الخاصة. وما نلاحظه أن ابن شهيد اتخذ من أنموذجه حالة خاصة، جعل منها نموذجا فريدا ، و" الواقع أن الشعر العربي القديم ينزع بوضوح إلى اتخاذ الحالات الخاصة مطية، لتثبيت الآراء وتدعيم الأفكار بتعميمها وتوسيعها فيغدو المثال المفرد المعزول أنموذجا"[32].

فالناس –على الدوام – يسعون إلى اتباع الأحسن والأجود، في كل أمر، وهذا الأنموذج رمز للكمال، والإلمام بكل أمر ايجابي، فهو القدوة و المثال المتبع .

و يعرف أوليفي روبول " الأنموذج بكونه " المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده"[33]. و لعل وجوب تقليده يتطلب اقتناعا من طرف المتلقي , و إقناع المتلقي يتطلب هو الآخر حججا مقنعة , أو أدعى إلى الإقناع بما يطرح حول هذا النموذج .

و صناعة هذا الأنموذج لا تعني صناعته في ذاته ، بل صناعة بعض ملامحه وصفاته، ليبدو على" قدر كاف من الهيبة "، على حد تعبير" بيرلمان"[34].

والإشكال الذي نطرحه هنا: كيف بنا ابن شهيد أنموذجه في قصيدته الرثائية؟ وكيف وظفه لغاية حجاجية؟ وهل يعد هذا التوظيف الحجاجي وجها من وجوه الإبداع الشعري الخاص؟

هذا الطرح يدفعنا إلى البحث في تقنيات نمذجة موضوع القصيدة (ابن ذكوان).

تقنيات النمذجة في مرثية ابن شهيد للقاضي ابن ذكوان:

إن القول الشعري إذا رام فيه الشاعر صناعة أنموذج ما, فإنه لا مجال فيه للاعتباط والصدفة، بل كل ما يأتي فيه مبرر مقصود، عبر مجموعة من التقنيات الموظفة لهذا الغرض، وقد استعمل ابن شهيد بعض التقنيات لغرض الإقناع، أهمها:

1- المبالغة في الوصف والتصوير:

يبدأ ابن شهيد قصيدته –كما مر بنا- ببيت في التفجع لعظم المصيبة، ويبدي حزنه الشديد على موت هذا الرجل قائلا:

إذا لم تجد إلا الأسى لك صاحبا فلا تمنعن الدمع ينهل ساكبا (35)

فيصف الحالة النفسية التي يعيشها، من أثر افتقاده لصاحبه ابن ذكوان ، إذ أصبح الحزن يلازمه كالصاحب، مما يستدعي سكب الدموع الكثيرة لهذا المصاب الجلل، وفي هذا تهيئة للمتلقي لما سيسمعه فيما بعد ، ففي البيت الثاني يشبه وفاة ابن ذكوان بسقوط شمس من التقى، وهو وصف مبالغ فيه لجعل المتلقي يشعر بعظمة المصاب، وعظمة هذه الشخصية ، ثم يشبهه بشهاب الحق الذي غرب على أهل الأندلس، وفي هذا التصوير ما يدل على حجاج , أو نية ابن شهيد في الإقناع بمكانة هذا الرجل في ذلك العصر.

ثم يرجع مرة أخرى لتصوير عظمة الخطب، وأثره على نفوس أهل الأندلس، ليشعر المتلقي بهذا الجو من الفاجعة، التي يعيشها المجتمع لموت هذا العظيم، وكيف استقبلوا نبأ وفاته، قائلا:

ظننا الذي نادى محقا بموته لعظم الذي أنجى من الرزء، كاذبا(36)

فلم يصدقوا المنادي بوفاته، لعظم وهول المصيبة على نفوسهم، وظنوه كاذبا. ويستمر ابن شهيد في تصوير أثر الخبر على نفوسهم، قائلا:

وخلنا الصباح الطلق ليلا و إنما هبطنا خداريا من الحزن كاربا (37)

فصور حالهم من شدة الحزن، وكأنهم في ليل مظلم مع أنهم في عز النهار، مما جعلهم يثكلون الظلام، لأن الدنيا اسودت بذهاب هذا العلم، في قوله:

ثكلنا الدجى لما استقل و إننا فقدناك يا خير البرية ناعبا(38)

والثكل عادة يكون للإنسان، لكنه هنا جاء للظلام والليل، لأن وفاة ابن ذكوان حولت نهار الناس إلى ليل من شدة حزنهم عليه.

ويعمد ابن شهيد إلى المبالغة الشديدة في تصوير عظمة هذا الرجل قائلا:

وما ذهبت إذ حل في القبر نفسه ولكنما الإسلام أدبر ذاهبا (39)

فصور ذهاب هذا العلم بمثابة ذهاب الإسلام عن بلاد الأندلس، واللجوء إلى المبالغة في التصوير، تضيف مزيدا من التعظيم لشخص ابن ذكوان، كأنموذج يسعى الشاعر للإقناع بمكانته الدينية في بلاد الأندلس.و يبقى ابن شهيد يرسم للمتلقي صورة العظمة و الكمال لهذا القاضي, ويزينها بشيء من المبالغة, ليجعل منه نموذجا فريدا :

ولما أبى إلا التحمل رائحا منحناه أعناق الكرام ركائبا
يسير به النعش الأغر وحوله أباعد راحوا للمصاب أقاربا
عليه حفيف للملائك أقبلت تصافح شيخا ذاكر الله تائبا
تخال لفيف الناس حول ضريحه خليط قطا وافى الشريعة هاربا
إذا ما امتروا سحب الدموع تفرعت فروع البكى عن بارق الحزن لاهبا (40)

فيصف لنا في هذه الأبيات توديعهم لهذا الفقيد، وهو ينتقل إلى مثواه الأخير، وصفا فيه بعض المبالغة، فيصف حمله على أعناق الكرام من المجتمع ، فأضحت له تلك الأعناق ركائبا، ويصف نعشه بالأغر، وحوله من أباعد الناس ما يجعل المرء يعتقد أنهم ذوي قربى ووصف جلالة هذا الرجل بأن حفته أعداد من الملائكة تصافحه، وفي هذا التصوير كثير من المبالغة، وكل ذلك لإقناع المتلقي بنموذجه المختار, و بصلاحه وتقواه ، وبأنه يستحق هذا الرثاء، ثم يصف جموع الناس حول قبره ، ويصف بكاءهم عليه ، فيشبه دموعهم بالسحب الممطرة ، وبرقها هو الحزن الشديد.

و بعد ذلك ينتقل إلى الحجاج على فضل هذا الرجل بينهم ، ويتحسر على ذهابه ، لأنه كان مدافعا عن الإسلام أمام خصومه الألداد ، وذلك في قوله:

فمن ذا لفصل القول يسطع نوره إذا نحن ناوينا الألد المناوبا
ومن ذا ربيع المسلمين يقوتهم إذا الناس شاموها بروقا كواذبا
فيا لهف قلبي آه ذابت حشاشتي مضى شيخنا الدفاع عنا النوائبا
ومات الذي غاب السرور لموته فليس و إن طال السرى منه آيبا وكان عظيما
يطرق الجمع عنده ويعنو له رب الكتيبة هائبا
وذا مقول عضب الغرارين صارم يروح به عن حومة الدين ضاربا(41)

فهذا الفقيد مدافع عن الإسلام ، يلتف الجمع حوله ، ويهابه رب الكتيبة من الجند، أما أقواله فهي قاطعة كحد السيف، يدافع بها عن حرمة الإسلام بصرامة.

ولعل هذه المبالغة في الوصف , تقودنا إلى تقنية أخرى من التقنيات التي استعملها الشاعر في نمذجة مرثيه ، ألا وهي تقنية حشد النعوت والأوصاف، أي الإفراط في استخدام الصفات والأحوال ، فكيف عملت هذه التقنية في الحجاج على مقصد ابن شهيد ، في جعل مرثيه نموذجا ؟

2- تقنية حشد الأوصاف:

أكثر ابن شهيد في مرثيته من ذكر الصفات الدالة على الرجل، أو ما اتصل به من أسماء الفاعل، وأسماء التفضيل، والصفة المشبهة، وغير ذلك.

فمن أسماء الفاعل نجد صاحبا –ساكبا –غاربا –محقا –كاذبا كاربا –ناعبا –ذاهبا – رائحا –ذاكر-هاربا –لاهبا- مناوبا- آيبا –هائبا- صارم –ضاربا – طالبا .

وأما صيغ التفضيل فنجد مثلا : الأغر –الألد – أحلى ، كما أن الشاعر أكثر من حشد الصفة المشبهة مثل: حفيف – لفيف –خليط – عظيم - جميل.

أما صيغ المبالغة فنجد مثلا الدفّاع , عضب.

وكل هذه الصيغ الدالة على الأوصاف والنعوت، حشدها ابن شهيد لغاية حجاجية، المقصد الأساس منها هو مدح شخص ابن ذكوان، وإثبات مكانته العظيمة، فمثل هذه الصيغ تستميل عاطفة المتلقي، وتشدّ لبه نحو الموصوف، فيرسم له في ذهنه صورة ايجابية تسهم في تحقيق المقصد الحجاجي للشاعر، الذي يصنع أنموذجا للخصال الحميدة والمثل العليا، وأهمها الدفاع عن حرمة الإسلام، والوقوف بالمرصاد لأعدائه، والتميّز بصرامة الأقوال في ذلك، وهذا الأنموذج يتوق له المتلقي، ويتمنى أن يكون رجال العلم والدين في كل عصر بمثل صورة هذا الرجل (ابن ذكوان).

وحشد النعوت والإفراط في ذكر الصفات والأحوال، لم يقصرها ابن شهيد على المرثي، الذي هو موضوع القصيدة، بل جعل يصف وينعت كل ما تعلّق بهذا الشخص، فيصف النعش الذي حمل هذا العلم بالأغر، ويصف ما حول القبر قائلا:

"عليه حفيف من الملائك أقبلت "[42]

فنلمح نوعا من التقديس لشخص هذا الرجل، فالملائكة بأعداد هائلة تصافح هذا الشيخ في قبره، لما تميز به من تقوى، ثم ينتقل بعد ذلك لوصف ضجة الناس، وازدحامهم حول قبره:

تخال لفيف الناس حول ضريحه خليط قطا وافى الشريعة هاربا[43]

ثم يصف بعد ذلك حزن هؤلاء الناس، على فقدان هذا الرجل بقوله:

إذا ما امتروا سحب الدموع تفرعت فروع البكى عن بارق الحزن لاهبا (44)

فهؤلاء الجموع من الناس، إذا بكوا حزنا على ابن ذكوان، أصبحت عيونهم سحبا ممطرة بتلك الدموع الغزيرة، والحارة لما بنفوسهم من الحزن الشديد.

نلاحظ كيف عمد ابن شهيد من بداية قصيدته الرثائية إلى نهايتها إلى حشد النعوت والأوصاف، وما ارتبط بها من صور بيانية كالتشبيه مثلا، وذلك من أجل مقصد سعى إليه في نصه، وهو نمذجة موضوع قصيدته أي جعله نموذجا فريدا لكل خصلة نبيلة مفتقدة بافتقاده .

نخلص في الأخير، إلى أن ابن شهيد استخدم تقنيات كالنمذجة "صنع النموذج "، وحشد النعوت والأوصاف لإقناع المتلقي بصحة دعواه، وبما طرحه حول شخص القاضي ابن ذكوان من رؤية، لذلك كان علينا الكشف عنها ، والتي تتلخص في عظمة المصاب إثر فقد ذلك العلم، ورؤيته هذه يحتج لها، بأساليب مختلفة – كما تابعنا في تحليلنا للنص – من أجل إقناع المتلقي بأن صاحبه حقيق بأن يرثى، وبأنه جدير بكل كلمة قالها في وصفه و إبراز مكانته في المجتمع، لا شك أن لتقنيات النص المستعملة فعالية حجاجية نافذة، وسلطة إقناعية مؤثرة في المتلقي.

والخلاصة العامة التي يمكن التوصل إليها، من خلال الحجاج في قصيدة ابن شهيد الرثائية هي إنّ القصيدة كانت منسجمة بين أجزائها ومفاصلها، لا تفكك في وحدتها، وهو أمر أشيع عكسه حول الشعر العربي القديم ، فقد أثبت الحجاج في النص انسجاما، وعدم تناقض أجزاء النص، إذ من سمات كل حجاج الانسجام، وعدم التناقض.

وقد أثبت ابن شهيد في حجاجه على أحقية ابن ذكوان بالرثاء و التفجع عليه, أن القصيدة القديمة بما فيها الرثاء يحكمها خيط رفيع يشد مفاصل الخطاب ,ويصل بين أقسامه الكبرى .

الهوامش :

(1) سامية الدريدي الحسيني: دراسات في الحجاج _ قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، ط 1, إربد – الأردن، 1430هـ-2009م, ص 01.

(*) ابن شهيد الأندسي هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد [4]بن شهيد بن عيسى بن الوضاح الأندلسي القرطبي الشاعر، ينظر: ديوان ابن شهيد الأندلسي و رسائله، تحقيق: محي الدين ديب، المكتبة العصرية للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1422هـ- 2002م ص 11.

(**) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بنعبدوس بن ذكوان الأموي قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة 382هـ، و توفي سنة 413هـ. ينظر: المصدر السابق، ص51 ، نقلا عن عدة مصادر منها الصلة، و الجذوة والبغية, و أعمال الأعلام، و المغرب، و النباهي، و ترتيب المدارك.

(2) سامية الحسيني، المرجع السابق، ص04.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، آليات الحجاج و أدواته، ضمن كتاب الحجاج مفهومه و مجالاته –دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد –الأردن، 2010م, ص 77.

(4) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1, 2005م ص 16.

(5) عادل بن علي الغامدي، الحجاج في قصص الأمثال القديمة-مقاربة سردية تداولية – كنوز المعرفة للنشر و التوزيع، ط 1, عمان، 1437هـ – 2016 م ص 11.

(6) فرانسيس جاك، نقلا عن فرانسو أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي, ص 08.

(7) ينظر: جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010م ص 19.

(8) عادل بن علي الغامدي، المرجع السابق، ص17.

(9) نواري سعودي، أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي – المبادئ و الإجراء، دار الحكمة للنشر و التوزيع، ط1، العلمة، الجزائر، 2009م ص 96.

(10) سامية الدريدي الحسيني، المرجع السابق، ص 06- 07.

(11) ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، حققه و فصله و علق على حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت –لبنان، ط5، 1981م، ج2، ص

(12) المصدر نفسه، ص 295 .

(13) عبد القاهر الجرجاني, أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، لبنان ط1 ,(دت)، ص 108.

(14) المصدر نفسه، ص 15.

(15) ابن شهيد الأندلسي، الديوان، تحقيق: محي الدين ديب، ص50.

(16) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(17) نفسه، الصفحة نفسها.

(18) المصدر نفسه, الصفحة نفسها.

(19) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(20) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(21) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(22) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(23) نفسه، نفس الصفحة.

(24) نفسه، ص 51.

(25) نفسه، نفس الصفحة.

(26) نفسه، نفس الصفحة.

(***) أبو حاتم أخ لأبي العباس بن ذكوان، ينظر: ديوان ابن شهيد ص 52.

(27) نفسه، نفس الصفحة.

(28) نفسه، نفس الصفحة.

(29) أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح: عبد الرحمان البرقوقي، تقديم: عمر فاروق الطباع، ط1 بيروت، دت، مج، ص

(30) سامية الدريدي الحسيني، المرجع السابق، ص 58.

(31) المرجع نفسه، ص 61.

(32) المرجع نفسه، ص 62.

(33) أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، المطابع الجامعية الفرنسية، ط2، منقحة، 1994م ص 186.

(34) بيرلمان و تيتكا، مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة، المطابع الجامعية بليون، ج2، 1981م، ص489.

(35) ابن شهيد، الديوان، ص 50.

(36) نفسه، نفس الصفحة.

(37) نفسه، نفس الصفحة.

(38) نفسه، نفس الصفحة.

(39) نفسه، نفس الصفحة.

(40) نفسه، نفس الصفحة.

(41) نفسه، ص 50-51.

(42) نفسه، ص 50.

(43) نفسه، نفس الصفحة.

(44) نفسه، نفس الصفحة.